التربية والبيداغوجيا

دراسة نقدية لرؤية دوركايم

د.نجاة يحياوي د.فتيحة طويل

مخبر المسألة التربوي في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

الملخص:

ظل الجدل قائما حول العلاقة بين التربية والبيداغوجيا، وكثيرا ما يتم الخلط بين المفهومين، وفي هذا الإطار لا يمكننا تجاهل رؤية دوركايم حول هذين المفهومين والذي يؤكد على ضرورة التفريق بينهما.

وتسعى هذه المداخلة إلى معرفة رؤيته للتربية والبيداغوجيا ضمن ما آلت إليه الدراسات التربوية الحديثة للمفهومين.

Résumé :

Avec la controverse existe à propos de la relation entre l'éducation et la pédagogie, et souvent, on confondre entre les deux concepts.

Dans ce cadre nous ne pouvons pas ignorer la vision de Durkheim à propos de ces deux concepts, qui met l'accent sur la nécessité de faire la différence entre eux, cette intervention vise à découvrir sa vision de l'éducation et de la pédagogie dans le résultat des études éducatives modernes de ceux concepts.

تمهيد:

التربية والبيداغوجيا مفهومان مترابطان، لكن العلاقة بينهما أخذت أبعادا مختلفة لدى الكثير من الباحثين، وأبرزهم كان دوركايم، الذي لا تزال رؤيته محل نقاش للعديد من التربويين، يسعون في ذلك لتوضيح أهمية البيداغوجيا للتربية وما تمثله التربية للبيداغوجيا، حيث أن الهدف من فهم هذه العلاقة وتحديدها هو السبيل لإنجاح العمل التربوي.

أولا– العوامل التي شكلت تفكير دوركايم:

دوركايم أول رئيس لقسم علم الاجتماع في الجامعة، فرض نفسه كمؤسس لهذا التخصص في فرنسا عن طريق دروسه ومؤلفاته وتأسيسه مجلة السنة

السوسيولوجية L'année sociologique حدد موضوعا ومنهجا خاص لعلم الاجتماع، يرتكز في أعماله على علم الأحياء وخاصة أعمال كلود برنارد Claude Bernard ويركز في فكره على أن كل المؤسسات والتمثلات وطرق العمل تدرس على ضوء الدور الذي تلعبه الاعتقادات والممارسات الدينية، التربية والعمل .... ويعطي الأولوية في تحليله للمجتمع في شموليته، ويموقع نفسه في خط العضوانية التطورية L'organicisme évolutionnaire كما يرتكز فكره على نظرية الرابط الاجتماعي الذي يعتبر المجتمعات ذات التضامن الآلي عن مجتمعات يسيرها التضامن العضوي، (عبد الحميد قرفي، 2010 ص ص40-41).

ثانيا-مفهوم التربية:

لذلك يوجد في عصرنا نظرتان مختلفتان لمفهوم التربية، نظرة قديمة وأخرى حديثة، فالأولى تعتبر التربية كفن تستعمل في عملية تلقين الأطفال شتى القوانين والقيم والعادات التي يسير عليها المجتمع، أي محاولة إعادة إنتاج سوسيوثقافي، أما النظرة الثانية ترى أن التربية الناجحة ترتكز على سيكولوجية الطفل ورعاية كل القدرات والاستعدادات الموجودة لديه، وإذا كانت الدراسات الآن ترتكز على التربية من خلال النظرة الثانية فإنه لا يمكن للممارسات التربوية الحالية أن تهمل النظرة القديمة للتربية (عزيزي عبد السلام، 2003 ص ص15-16).

وفي تصنيفه للنظريات التربوية المعاصرة يرى أسعد وطفة أنها تعتمد على أربعة معايير:

الاعتبارات الذاتية للمتعلم، حيث تركز النظريات التربوية المثالية والروحانية على أهمية العنصر الذاتي والروحي في المتربي

الاعتبارات الاجتماعية، التربية هي نتاج للتفاعل الاجتماعي وتجسيدا لطابع الحياة الاجتماعية

المضامين التربوية للتعلم، إعطاء أهمية وأولوية للعمليات المعرفية

التفاعل التربوي للتعلم، ويكون بين العناصر المختلفة، المعلم والمتعلم وتكنولوجيا الاتصال والمجتمع (حسان هشام، 2007، ص ص53-54.)

لذلك أصبح علماء الاجتماع ينظرون إلى التربية باعتبارها ظاهرة اجتماعية، فعندما يتواجد الفرد في حالة تفاعل مع غيره من أفراد مجتمعه تنبثق التربية كظاهرة محددة لأنماط التفاعل والضوابط التي تشكل طبيعة العلاقات الاجتماعية(حسين عبد الحميد رشوان، 2010 ، ص5)، وبالرغم من إشارة العديد من المفكرين قديما وحديثا إلى الجانب الاجتماعي للتربية إلا أن أول من أكد على دراسة التربة كظاهرة اجتماعية هو إميل دوركايم.

1- النظرة الاجتماعية للتربية:

يعد إميل دوركايم أول من وحد جهود علماء الاجتماع في بلورة الاتجاه الاجتماعي في مجال التربية والتعليم، حيث قام بتدريس مقرر علم الاجتماع التربية في كلية الآداب بجامعة السوربون بباريس، وأكد على ضرورة التركيز على نقل القيم والمعتقدات عن طريق التربية الأخلاقية، وهو أول من اهتم بدراسة التربية كظاهرة اجتماعية واعتبر أن لها طبيعة اجتماعية في أصلها ووظيفتها، وهي أكثر ارتباطا بعلم الاجتماع أكثر من أي حقل آخر، وعن طريقها يتحقق التجانس بين أعضاء المجتمع ويحدث التكامل بين أفراده عن طريق التنشئة الاجتماعية وإعداد أفراد المجتمع منذ صغرهم على عناصر التشابه والتماثل المطلوبة للحياة الاجتماعية.

كما اهتم دوركايم بتعزيز هدف التربية لغرس عناصر التشابه والتماثل تلك، واهتم أيضا بعناصر الاختلاف واعتبر أن وجود الاختلاف شرط أساسي لتحقيق مبدأ التعاون في الحياة الاجتماعية الأمر الذي يجعل مسؤولية التربية تعزيز عناصر الاختلاف لتحقيق مبدأ التخصص والامتثال لقاعدة تقسيم العمل، كما أكد على ضرورة الاجتماع على القيم والمعتقدات عن طريق التربية الأخلاقية، كما اهتم بتعزيز هدف التربية لغرس عناصر التشابه والتماثل تلك، واهتم أيضا بعناصر

الاختلاف شرط أساسي لتحقيق مبدأ التعاون في الحياة الاجتماعية، الأمر الذي يجعل مسؤولية التربية تعزيز عناصر الاختلاف لتحقيق مبدأ التخصص والامتثال لقاعدة (دوركايم، تقسيم العمل، ص ص 7–11).

لقد كانت نزعته واقعية خلافا للنزعة الفردية عند سبنسر، حيث يقول أن هناك ظواهر اجتماعية لا يمكن تفسيرها في ضوء التحليل السيكولوجي أو البيولوجي لأنها أشياء قائمة في المجتمع قبل وجود الفرد، وتهدف التربية عنده إلى إثارة وإنماء عدد من عوامل النمو الجسمي والعقلي والأخلاقي وتكسب الفرد العادات والتقاليد والقيم السائدة في المجتمع، فالتربية عند دوركايم هي وسيلة لتنظيم ذات الفرد وذات المجتمع في وحدة منتظمة ثابتة ذات معنى، ولكنها ليست ظاهرة استاتيكية بل هي ظاهرة علمية ديناميكية، (حسين عبد الحميد رشوان ص ص128– 130).

2– مفهوم التربية عند دوركايم:

عندما قام دوركايم بإضفاء الطابع الاجتماعي للتربية وجعله الأساس الذي يمكننا من خلاله تفسير الظاهرة التربوية طرح تصورا عن وجود شكل تربوي نظري أو عملي تتفق عليه وتقره جميع المجتمعات بل توجد أشكال نظرية وممارسات عملية للنظم التربوية تتعدد بتعدد المجتمعات المختلفة وهذا راجع لاختلاف الظروف الاجتماعية والثقافية والدينية، فالتربية في نظر دوركايم ليست استاتيكية بل هي ظاهرة ديناميكية وفي تغير مستمر كما سبق الذكر.

وهذا الأمر يؤدي بعالم التربية العمل على إيجاد تغييرات وتحسينات داخل النظم التربوية وتعتبر المدرسة من المؤسسات الاجتماعية الأساسية التي من خلالها يستطيع المجتمع أن يتغير من الشكل البدائي إلى الشكل المتحضر.

وكانت الدروس الأولى التي قدمها دوركايم في الفترة(1902) – 1906) من خلال مجموعة من الدروس الخاصة بالتربية يؤكد فيها على أنه يجب أن تدرس التربية في ضوء تأثيرها بالظواهر الاجتماعية الأخرى الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية ، كما يؤكد على نظرية الشيئية التي خص بها الظواهر الاجتماعية بصفة

عامة والتربية بصفة خاصة L'éducation est chose éminente sociale(Emile durkheim, éducation et sociologie 40 et p12) ، واعتبر أن الأخلاق ليست ذات وجود مستقل بل هي وثيقة الصلة بالمجتمع والحياة المشتركة بين الأفراد التي تعزز فكرة الواجب وكبح الغرائز والامتثال للقواعد الاجتماعية في شكل انضباط داخلي وخارجي وذاك الامتثال هو من أمر التربية التي تهتم بتلقين الأفراد قيم المجتمع الواحد، وانطلاقا من هذا الاعتبار عرف دوركايم التربية بأنها تنشئة الطفل منذ صغره على هيئات يلتحم فيها الوعي الفردي بالوعي الجمعي، فالتربية عنده هي الذي يمارسه أجيال الكبار على أجيال الصغار الذين لم ينضجوا بعد للحياة الاجتماعية (إميل دوركايم، ترجمة أسعد وطفة، التربية المجتمع، 1996، ص ص50-51).

وفي هذا السياق نجده يحدد دور التربية والتنشئة الاجتماعية في المجتمع، ويرى أنها العمليات التي يتعلم الفرد من خلالها ويكتسب الوسائل المادية والعقلية والمعايير الأخلاقية التي يحتاجها لكي يؤدي وظيفته في المجتمع، وطرح دوركايم بذلك نظرية مترابطة منطقيا تفوق أي منظور آخر في علم الاجتماع، فقد أفصح عن توجه نظري واضح وبسيط ومحدد لمفهوم الظاهرة الاجتماعية، إلا آن تحليله كانت متعلقا بالماكرو (الكبير) للظاهرة الاجتماعية ولم يكن لديه ما يقوله عن المستوى (الميكرو) لها، ومع هذا كانت رؤيته عن طبيعة التربية والتنشئة الاجتماعية والتربية والتعليم، (محمد الجوهري وآخرون ، 2011، ص169).

ثالثا- البيداغوجيا:

هي كلمة يونانية تتكون من مقطعين الأول (**paidos**) وتعني الطفل و الثاني (**logia**) وتعني قيادة، فهي تعني القيادة و السياقة كما تعني التوجيه، و البيداغوجي هو من يرافق المتعلمين لتحقيق أهداف تربوية نبيلة ويحرص على تربيتهم لا معاقبتهم (الشدة على المتعلمين مضر بهم)، وهو ما أكده العلامة ابن خلدون في

مقدمته عن كيفية إيصال المعارف إلى المتعلمين. أنظر، (عبد الرحمن بن خلدون، د ت، ص 617 وص 610).

وتعرف البيداغوجيا على أنها مجموعة الطرائق والتقنيات والخطوات التي تميز تعلم مادة معينة: بيداغوجية القراءة، الحساب، العلوم الطبيعية....الخ، أو نشاط أساسي يجب تحفيزه عند التعلم بيداغوجية الاكتشاف، أو دخولا محددا في الممارسة التربوية بيداغوجيا الأهداف (عزيزي عبد السلام، 2003، ص 103).

ويعرفها البعض على أنها مصطلح عام يحدد من ناحية علم وفن التدريس، ومن ناحية أخرى طريقة التدريس، وتستعمل في معناها الضيق لتحديد التقنيات البيداغوجية، ويمكن تصنيفها:

بيداغوجيا عامة: كل ما يدخل ضمن العلاقة بين المعلم والمتعلم

بيداغوجيا خاصة: تتضمن طريقة التعلم حسب المادة المدرسة

فهي نظرية تطبيقية للتربية تستمد مفاهيمها من علم النفس: نظريات التعلم، وعلم النفس التكويني، والقياس، والتقويم، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع: علم الاجتماع التربوي، الانثروبولوجيا التربوية، والثقافة. (جابر نصر الدين، 2009، ص ص12 11).

وهي تهتم باختيار طرق العمل والتدريس والعدد les dispositifs والوسائل والتقنيات والتقويم ومختلف العناصر المتدخلة بشكل مباشر أو غير مباشر في وضعيات التعلم والتعليم.

إذن يمكن تناول البيداغوجيا من خلال ثلاث منظورات أو أبعاد:

البعد الأول: البيداغوجيا النظرية، وهي حقل من التفكير والمعرفة النظرية التي أفرزها تاريخ العلوم الإنسانية وتاريخ البيداغوجيا لفهم الظواهر المرتبطة بالتعليم والتعلم أو وصف الأفعال التربوية.

البعد الثاني: البيداغوجيا التطبيقية، تقوم بتحليل وتفسير الممارسات التي يقوم بها الفاعلون التربويون في وضعيات التعلم، مرتكزين في ذلك على نموذج نظري.

البعد الثالث: البيداغوجيا التدخلية أو التوجيهية، prescriptive، تأخذ على عاتقها توجيه الفاعلين التربويين نحو الاختيارات التعليمية الفعالة على شكل مقاربات ومناهج معينة، مقاربة الكفايات، الأهداف، الفارقية ...الخ (محمد سعد، مفهوم البيداغوجيا، الدلالات والأبعاد).

البيداغوجيا كما يبدو هي فن التدريس أو طرائق التدريس الخاصة بحقل أو مادة أو مستوى تعليمي أو بالفلسفة التربوية، وهي نمط من التفكير والفهم ونمط من المعرفة العامة للظواهر التربوية، هذا المعنى الذي غيب وأصبح استخدامها كأسلوب تعليمي والذي أعطى لها عدة معاني لأنواع البيداغوجيا.

لذلك نأخذ بوجهة النظر التي تميز في لفظ بيداغوجيا بين استعمالين يتكاملان فيما بينهما وهما:

- ✓أنها حقل معرفي قوامه التفكير الفلسفي والسيكولوجي في غايات وتوجهات الأفعال والأنشطة المطلوب ممارستها في التربية والتعليم
- ✓أنها نشاط عملي يتكون من مجموع الممارسات والأفعال التي ينجزها كل من المعلم والمتعلمين داخل الصف (حسن اللحية، ماهو الديداكتيك .)

أما اليوم، فلم يعد من المتيسر الحديث اليوم عن البيداغوجيا بالتعريف (ال) ولا الحديث عن بيداغوجيا مطلقة لأن البيداغوجيا اليوم هي بيداغوجيات سواء كانت تستند إلى نظرية في التعلم أو إلى تقنية من تقنيات التنشيط الخاصة بديناميكية الجماعات أو بيراديغم نظري عام، فالبيداغوجيا اليوم هي استراتيجية، وهي كنشاط واع.

يقول حسن اللحية أنه أغري الكثير من المدرسين والبيداغوجيين بالخطاب الباترونالي بتدريسهم العبارة الداعية التقليل من المعرفة والإكثار من الكفايات، أي التأكيد على التكوين بدل الدروس وتعلم التفكير بدل الحفظ، لقد كانت المعارف المدرسية مهتمة بمسألة الحفظ، ومع الإصلاحات الحديثة المبنية على ربط التعلم بالوسط الاقتصادي وتدعو إلى تبديل اكتساب المعارف بالكفايات المرتبطة بإنتاجية

العامل واختزالها في المهارات لم تعد المدرسة وحدها القادرة على تعليمها للمتعلمين، لذلك أصبحت مهمة المدرسة تختزل في الكفايات العرضانية، وبالتالي تحول البرامج المدرسية إلى قواعد للكفايات (الحسن اللحية، مآل المدرسة، التفسير السوسيولوجي)

رابعا– تعقيب:

اتخذ إميل دوركايم من الظاهرة التربوية مثالا لتأكيد صحة تعريفه للظاهرة الاجتماعية، حيث يقول: إننا لا نستطيع ترك الطفل يعيش بدون أن نوجه سلوكه وفق ما يتطلبه المجتمع من عادات وتقاليد وقيم يجبره عليها المجتمع، وبذلك فالتربية هنا ليست من صنع الفرد، بل هي من صنع المجتمع جاءت نتيجة تفاعل عناصر المجتمع الثقافية والاجتماعية المتعددة في مختلف مراحل تطوره التاريخي، وحسب دوركايم، فالظاهرة التربوية تتسم:

بالعمومية: فهي مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد والمجتمع الإنساني ككل.

نسبية: لكل مجتمع طريقة خاصة في التربية تبعا لعناصره الثقافية والاجتماعية.

جبرية: تفرض نفسها على آراء الأفراد وتوجهاتهم دون أن يشعروا، ولكن لا يستطيع أحد الخروج عنها.

شيئية وموضوعية من حيث قابليتها للدراسة.

ترتبط بغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى(حسين عبد الحميد رشوان، 2010، ص 90).

إن دوركايم بنى موقفه من التربية باعتبار أن الفرد يولد وهو مجرد من طبيعته الاجتماعية والتربية هي الوسيلة المناسبة لتكوين شخصيته على الصورة التي يريدها المجتمع، وغرس المظاهر الاجتماعية في الفرد بواسطة التربية هو ما يحدد هدف التربية ومهمتها وتنقل الفرد من وضع أناني إلى وضع اجتماعي، فالطفل يرث بعض الأسس البيولوجية عن الآباء ولكنه يكتسب المكونات النفسية والاجتماعية لشخصيته عن طريق التربية ليكون عضوا فعالا في المجتمع، والتربية تختلف بتعدد الوسط الاجتماعي واختلاف المجتمعات، وبقاء المجتمع رهين بمستوى التجانس

والتكامل بين الفرد ويعتبر النظام التربوي ركيزة مهمة في دعم واستقرار هذا التجانس.

إن التربية عند دوركايم هي عملية تنشئة منظمة تجعل من الأفراد كائنات فردية ومجتمعية في نفس الوقت، وهي ذلك التأثير الذي يمارسه جيل الراشدين على الجيل الذي لم يرشد بعد من أجل الحياة الاجتماعية وهدفها إثارة وتنمية لدى الطفل مجموعة من الحالات الفيزيائية والفكرية والأخلاقية التي يتطلبها المجتمع السياسي في جماعة، لذلك فالمجتمع لدى دوركايم هو المسؤول على رعاية وتنمية الأفراد، والفرد مطالب بأن يدمج نفسه في المجتمع ويشارك في نشاطاته.

وبما أن التربية هي النشاط أو الفعل الذي يمارسه المربي على المتربي، ولكي تصل هذه الممارسة إلى غايتها فإنها بحاجة إلى توجه من طرف البيداغوجيا التي تستمد أسسها من علم النفس وعلم الاجتماع، فالبيداغوجيا عند دوركايم هي نظرية تطبيقية نقدية توجه الحياة التربوية نحو آفاق محددة وغايات معلنة، وهي لا تسعى لدراسة الأنظمة التربوية على المستوى العلمي بل إلى تقديم أفكار توجه المربي، وهي النظرية العامة لفن التربية.

لقد فصل دوركايم بين التربية كموضوع خاص للدراسة العلمية في البيداغوجيا وموضوع خاص للدراسة في علم الاجتماع، وهذا غير ممكن إلا في حدود الجوانب النظرية، مربوحة بولنوار ، ،2005

ومع تطور الدراسات التربوية، أصبحت التربية هي الممارسة من الآباء والمعلمين على الأطفال تربية شاملة لا يحدها زمان ولا مكان، وهي مستمرة سواء أكانت مقصودة أو غير مقصودة وتسعى إلى إحداث عدد معين من الحالات الجسمية والعقلية والأخلاقية لدى الطفل يتطلبها منه المجتمع السياسي والمحيط الاجتماعي الذي هو موجه إليه بالخصوص، أما البيداغوجيا فهي النظريات والآراء التربوية ووجهات النظر التي تدور حول فهي حسب رأيه النظرية العملية في التربية، ولها معنيان:

- هي حالة يكون فيها رجل التربية مكتسب المهارة لفن التربية والتعليم، نظرية هذا الفن.
- والبيداغوجيا كفن أو نظرية لا يمكن الاستغناء عنها في مجال التربية.

وبهذا المعنى، البيدغوجيا هي إطار متكامل من النظريات والأفكار التربوية تعمل على تنظيم العلاقة بين المبادئ العامة والتجارب المنفصلة والمناهج المتعددة، والتفكير حول المذاهب والأنظمة والطرائق وتقنيات التعليم والتربية، وهي تميز بين ما هو واقعي وما هو مثالي في العملية التربوية.

لقد كشفت تجارب رواد استراتيجيات البيداغوجيا الجديدة الممارسين ميدانيا أن التعلم محكوم بالطبيعة البشرية للكائن المتعلم أكثر مما هو محكوم بالتنظيم المحكم والبناء المنطقي لمحتويات المواد الدراسية (الحسن اللحية، التربية والبيداغوجيا).

المراجع:

1. جابر نصر الدين، **دروس في علم النفس البيداغوجي**، منشورات مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة ، 2009
2. يميل دوركايم ، **قواعد المنهج في علم الاجتماع**، ترجمة محمد قاسم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988
3. محمد الجوهري وآخرون، **التفكير الاجتماعي(الرواد)** ، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2011
4. عبد الحميد قرفي، **بناء المعرفه السوسيولوجية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010
5. إميل دوركايم، ترجمة أسعد وطفة، **التربية المجتمع**، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، دمشق، 1996
6. Emile Durkheim, **éducation et sociologie**, Puf, le sociologue ? 3 eme édition, 1977, p 40 et p12
7. الحسن اللحية،" ما هو الديداكتيك؟"
http://www.hassanlahia.com/2015/08/blog-post_585.html,11/04/2016
8. محمد سعد، "مفهوم البيداغوجيا، الدلالات والأبعاد":
https://www.youtube.com/watch?v=qxav_OuoTBY,11/04/2016